الفلسفة.. وأسئلة المستقبل

د. مصطفى النشار (*)

أولا: معنى فلسفة المستقبل

- كثير من الناس يتصورون أن دور الفلسفة يقتصر على التفسير والتبرير ويتناسون أن دورها الأكبر هو في التغيير وليس المقصود بالتغيير هنا هو التغيير الآني، فالتغيير يفتح الطريق أمام الفيلسوف باب التفكير في المستقبل والتنبؤ بما ستؤول إليه الأمور في كل مجالات الحياة. ومن ثم تكون رؤية الفيلسوف رؤية تنبؤيه يمكن أن يستفيد منها البشر في كل زمان ومكان.
- إن الفكر الفلسفي هو في صميمه دعوة إلى التغيير ودعوة إلى التفكير في المستقبل والاهتمام به، فالمستقبل هو مجال الممكن ومجال الحرية ومجال العزيمة وفرض الإرادة الفردية للأفراد وفرض الإرادة الجماعية للشعوب والمجتمعات التي تريد أن تتقدم وتحقق استقلالها الذاتي ونموها المستقل.
- وفلسفة المستقبل ما هي إلا دعوة للتفكير في المستقبل: قضاياه وتحدياته؛ فإذا كانت لحظات الزمان ثلاث: ماض وحاضر ومستقبل، فالماضي مضى وانتهى ولا مجال لاستعادته ومن يفكر في ذلك كأنه يتصور خطأ أن عقارب الساعة يمكن أن تعود إلى الوراء وهذا مستحيل، أما الحاضر فهو سيظل امتدادا للماضي بكل ما تركه لنا من مشكلات وتحديات علينا أن نواجهها لتحسين حياتنا وتطويرها، والحقيقة التي يتناساها الجميع أنه لا مجال لذلك ولا إمكانية له إلا بالتفكير في المستقبل. ومن هنا قيل أن المستقبل هو مجال الممكن ومجال الحرية ومجال إعمال عزيمة التغيير إلى الأفضل. وقد تساءلت ذات مرة بحق في إحدى مقالاتي الصحفية: متى يصبح الحاضر ابنا للمستقبل؟! وقصدت

(*) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

حينئـذ أن الإصلاح والتطور والتقدم لا يتمان باسـتعادة المـاضي أو حتى بالتفكير فيه و إنما بالنظر في الحاضر نفسـه واكتشـاف واسـتغلال كل ممكناتـه من خلال تخطيط وتفكير مسـتقبلي بطريقة تأملية وعلمية تسـتشرف أفاقًا جديدة للمسـتقبل متجاوزة كل مشـكلات هذا الحاضر الآنية المربكة بطريقة مبتكـرة وبآليات ومناهج جديدة ضاربة عرض الحائط بكل القيود المكبلة للانطلاق نحو المستقبل.

- والناظر في تاريخ الفلسفة بدقة سيكتشف أن الفلاسفة منذ أفلاطون ودعوته للمدينة الفاضلـة (اليوتوبيا) وأرسـطو ووضعه لمؤلفاته المنطقية كانا يسـتهدفان رسـم صورة جديدة للمسـتقبل سـواء في بناء المجتمعات السياسية أو رسـم مستقبل طويل للتفكير العلمي القائم على منطق العقل واستغلال إمكاناته الاستدلالية.

وهكـذا فعـل الفلاسـفة المحدثـون، فنقـد بيكـون للمنطق الأرسـطي وتقديمـه للمنهج الاسـتقرائي الجديد كان بغرض رسـم صورة مسـتقبلية جديدة للتفكير العلمي والتقدم المطرد في فهم الطبيعة وظواهرها وقد سـار في ذات الطريق فلاسـفة التجريبية الحديثة ونفس الشيء يصدق على فلسفة ديكارت العقلانية فقد فتحت الطريق أمام عصر جديد من التفكير القائم على اسـتخدام مهارات العقل الشـكية والنقدية للتخلص من حالة الجمـود والركود التي كان عليها الغربيون طوال العصور الوسطى.

وقد سار الفلاسفة العقلانيون وفلاسفة التنوير في ذات الطريق الديكارتي حيثما تفاعلوا مع الثورة الديكارتية في اسـتخدام المنهج العقلي الشـكي فأيقظوا الوعي الأوروبي وأخذوا بيد البشرية لمستقبل أفضل غير وجه الحياة الإنسانية تمامًا.

- إن سؤال فلاسفة الغرب الآن هو: أي فلسفة للقرن الحادي والعشرين، وقد ظهر كتاب يحمل نفس العنوان كتبه عشر فلاسـفة منطلقين من المقولات العشر لأرسـطو.. وكان السـؤال المطروح عليهم جميعًـا كلٌ في إطار اهتمامه ماذا بقى من رؤية أرسـطو لهذه المقولات في عصرنا و إلى أي حد يمكن قراءتها بلغة عصرنا و إلى أي حد يمكن الاستفادة منها في القرن الجديد، بل في الألفية الجديدة؟!

- إن سؤال الفلسفة الآن على حد تعبير جاروري في كتاب له يحمل نفس العنوان: كيف نضـع المسـتقبل؟! إيمانًا منه بـأن من الضروري التفكير المشـترك لإعادة بنـاء الوحدة الإنسانية لتفادي انتحار الكوكب.

ولعل البعض يتساءل عن علاقة هذه التساؤلات والرؤى الفلسفية المستقبلية بما يسمى علم المستقبل أو الدراسات المستقبلية؟!إ

ثانيًا: الفلسفة والدراسات المستقبلية

إن فلسفة المستقبل تستفيد وتتقاطع مع ما يسميه الكثرة الغالبة من المهتمين بالمستقبليات بالدراسات المستقبلية. والدراسات المستقبلية تتراوح في اعتقادي بين العلم والفن؛ فهي العلم الذي يرصد التغير في ظاهرة معينة و يسعى لتحديد الاحتمالات المختلفة لتطورها في المستقبل. وتستهدف الكشف عن المشكلات ذات الطبيعة المستقبلية والعمل على إيجاد حلول علمية لها.. وهي بوجه عام دراسات من شأنها تحديد وتحليل وتقويم كل التطورات المستقبلية في حياة البشر في العالم أجمع بطريقة عقلانية موضوعية.

وصدق سينكا الفيلسوف الرواقى قديما حينما قال: «لا توجد رياح مواتية لمن لا يعرف أين يذهب؟» وصدق جاستون بيرجيه الآن حينما قال: «إن في الدراسات المستقبلية يُبنى الماضي و يفهم بدلالة المستقبل بدلا من اعتبار هذا الحاضر إفرازا للماضي» وصدق حينما قال أيضًا: «ينبغي تعريف المستقبل انطلاقًا من المستقبل».

وهنا لابد من القول بأن الدراسات المستقبلية كلها تقوم على الاحتمال وليس على عالم اليقين و إن كانت نسبة صدق التنبؤات فيها مرتفعة للغاية رغم أنها تعتمد على سعة الخيال والتفكير فيما لا يجرؤ الآخرون على التفكير فيه. وهي بما هي كذلك أوسع من حدود العلم حيث تتضمن المساهمات الفلسفية والفنية جنبًا إلى جنب مع الجهود العلمية. وهي تتعامل مع مجموعة من البدائل والخيارات الممكنة وليس مع إسقاطات مجردة على المستقبل.

إن الدراسات المستقبلية لا غنى عنها الآن للدول والمجتمعات والمؤسسات بل والأفراد لأنها :هي التي ترسم خريطة كلية للمستقبل حيث تقدم استقراءً للاتجاهات المحتمل ظهورها في المستقبل وتتنبأ بالأحداث والقوى المحركة لها، وتبلور الخيارات الممكنة والمتاحة وتخضع كل خيار منها للدراسة بحيث ترشد عمليات المفاضلة أمام أصحاب القرار، كما أن من شأنها التخفيف من الأزمات حال حدوثها لأنها تتنبأ بها وبكيفية وقوعها وترسم طرق التهيؤ لمواجهتها. كم أن من شأنها كذلك طرح أسئلة المستقبل ومحاولة الإجابة عليها، مثل:

ما مستقبل الحضارة الإنسانية في ظل التهديد النووي ووقوع الأسلحة النووية في أيد غير رشيدة؟! ما مستقبل الصراعات والحروب في ظل وجود أسلحة تكنولوجية فتاكة وصغيرة مثل الطائرات المسيرة الموجهة تكنولوجيا والقادرة على استهداف الأشخاص والمواقع بدقة شديدة. ما المستقبل في ظل امكانية صناعة وامتلاك مثل هذه الأسلحة في أيدى الجماعات الإرهابية وبأبخث الأثمان في ضوء قلة التكلفة الإنتاجية لها؟! ما مستقبل التغيرات المناخية وما سيصاحبها من غرق وتصحر وجفاف وهجرات ديموجرافية في قارات ودول العالم المختلفة؟! ما هو شكل الخريطة السياسية في العالم في ظل وجود الصراعات الإثنية، والعرقية والثقافية التي تزداد يوما بعد يوم؟! ما مستقبل الفتوحات الفضائية في ظل تقدم علوم الفضاء، وهل سيكون بمقدور الإنسان فعلًا إقامة مستوطنات بشرية في الكواكب الأخرى؟ ما مستقبل التفاعلات الحضارية في ظل الصراع والتنافس بين القوى العظمى وخاصة بين الولايات المتجدة والصين وفي ضوء التقدم العلمي والاقتصادي المذهل للصين؟! ما مستقبل البشر في ظل وجود وتطور الذكاء الاصطناعي الفائق الذي قد يحمل تهديدًا وجوديًا للبشرية كلها؟!

وتثير إمكانية وجود ذكاء اصطناعي بشري أو ما بعد بشري الكثير من الأسئلة الفلسفية؛ فإذا تم تطوير الذكاء الاصطناعي العام والذكاء الاصطناعي الفائق فهل سيكونان واعين؟ هل سيكونوا ذواتهم أم مختلفين.. هذا رغم أنهم كائنات غير حية.

تثير مسألة العواقب المحتملة لانفجار الذكاء الاصطناعي أسئلة كثيرة حول القيم والأخلاق والوعي والهوية الشخصية. وما الدور الذي يمكن أن يقوم به الفلاسفة للمساعدة في معالجة تلك القضايا الشائكة؟!.

يتحدث المعنيون هنا عن مفاهيم جديدة تطرح نفسها على العقل الفلسفي مثل: «**العقل الممتد**» الذي هو عبارة عن رقائق تدعم العقل بكل صور المعلومات التي يريدها وتخزنها فيه حيث يتكامل العقل الاصطناعي مع الدماغ البيولوجي.

التكامل البشري في عالم مع ما بعد التفرد؛ حيث أن الكائنات فائقة الذكاء هذه ستكون قادرة على توليد حلول للمشكلات الفلسفية المركزية التقليدية مثل مشكلة العقل والجسد، مشكلة الوعي، مشكلة الحرية والإرادة... إلخ.

أخلاقيات قرارات تحسين الدماغ؛ وأهم ما يطرح هنا من أسئلة هو السؤال: هل يجب أن نتبنى الذكاء ما بعد البيولوجي؟! وما تأثير ذلك على طبيعة العقل ومسألة الهوية الذاتية؟!... إلخ.

ثالثا: أسئلة المستقبل العربي

لقد ضربنا فيما سبق بعض أسئلة و إشكاليات المستقبل المشغول بها فلاسفة الغرب. فماذا عن أسئلة المستقبل التي تشغلنا نحن؟ تحدثنا في المقال السابق عن أسئلة المستقبل و إشكالياتها التي تطرح نفسها و يدور حولها النقاش بين فلاسفة الغرب المعاصرين، وتساءلنا في نهايته: إذا كان ذلك كذلك لدى فلاسفة الغرب، فماذا عن أسئلة المستقبل التي تطرح نفسها على العقل العربي و ينبغي أن يدور حولها النقاش بين فلاسفة العرب ونخبتهم المثقفة اليوم؟!

إنها - بعيدا عما يجرى في الغرب من مناقشات عن مستقبل الإنسان وعصر مابعد الإنسان- لا تزال أسئلة العقل الطبيعي، فهل نُعمله للإجابة عليها بعد طرحها؟!

ففي مجال العلم والتعليم، ينبغي أن نتساءل عن مستقبل نظمنا التعليمية في ظل هذه التطورات المذهلة لنظم الذكاء الاصطناعي؟! وهل ستظل نسبة الأمية القرائية على حالها؟! وهل ستظل نسبة الأمية الثقافية على حالها؟!

هل سنظل نتخبط بين صور مختلفة للتعليم: بين التعليم العام والتعليم الديني، بين التعليم العام والتعليم الخاص، بين استيراد النظم التعليمية باسماء بلدانها: أمريكي - إنجليزي - فرنسي - ألماني - ياباني... إلخ. وبين محاولة استنباتها في بلداننا دون أن يكون لدينا استراتيجية واضحة نضعها نحن لتكون خارطة المستقبل للتعليم المصري والعربي؟!

وفي مجال الصراع الهوياتي والحضاري: إلى متى سنظل متشبثين بثنائية الأصالة والمعاصرة، التراث والتجديد؟ مع علم الكثيرين منا بأنها إشكالية زائفة حال كثرة الحديث فيها والتمترس حول أطرافها الثلاث دون أن نتقدم بثبات وجرأة إلى مواجهة تحديات الحاضر واستشراف آفاق المستقبل منذ أكثر من مئتي عام؟!

وما مستقبل الصراع بين الهويات المتباينة داخل الثقافة العربية عمومًا وداخل الثقافة الإسلامية بوجه عام؟. وهل يمكن أن نرى في المستقبل المنظور حوارًا عقلانيًا بين أطراف

الصراع الشيعي - السُنّي؟! يتحدد على أساسه المشترك ونقاط الاختلاف لعلنا نكتشف أن ما يوحدنا أكثر مما يفرقنا؟.

هل يمكن أن نجد في المستقبل المنظور حوارًا عقلانيًا حول مستقبل العمل العربي المشترك وبدلًا من الكيان الشكلي المسمى بالجامعة العربية نفكر مثلًا في قيام اتحاد فيدرالي للدول العربية ليكون أداة فعالة تملك القدرة على إدارة العمل العربي المشترك اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وفي كل مجالات الحياة، وليبدأ بأي عدد من الدول العربية صاحبة الريادة والقدرة على جذب باقي الدول العربية نحو عصر نهضوي عربي جديد وخلق كيان قادر على مواجهة كل تحديات الحاضر والمستقبل؟.

وقبل ذلك وبعده هل يمكن أن يتفق العرب على خط أحمر في التعامل المشترك بينهم لا يتعدونه حتى تظل للعرب قوة حقيقية تواجه التحديات من حولهم؟

هل يمكن البناء على ما هو مشترك والتغاضي ولو جزئيًا عن صراعات مفتعلة يشعلها بيننا الأعداء من جانب والطائفية المتعصبة من جانب آخر؟.

ما مستقبل الديمقراطية والحريات في عالمنا العربي، وماذا ينبغي أن تكون عليه صورة العلاقة بين الحكام والمحكومين؟! وأيا كانت تلك الصورة للحكم، متى نرى أن الجميع يعمل معا في مجتمع مدني راشد تحكمه سيادة القانون ويعمل لتحقيق التقدم والرفاه الفعلي للمجتمع ككل؟!

ما مستقبل العدالة وتوزيع الثروات في دولنا العربية، ومتى تقل الفجوة بين الأغنياء الذين يزدادون ثراء وبين الفقراء المقهورين الذين يزدادون فقرًا؟! وهل يمكن أن نرى في المستقبل المنظور تكاملا اقتصاديا عربيا بحدود مفتوحة بين الدول العربية، بدون تأشيرات وبدون تعقيدات؟!

ماذا نتصور مستقبل العلاقة بين دولنا العربية وإسرائيل مع استمرار احتلالها للأرض العربية في فلسطين؟! وما هي السيناريوهات المستقبلية للصراع العربي الإسرائيلي وكيف نواجه تحديات كل واحد منها؟!

إنها أسئلة المستقبل حقيقة.. وبمقدار قدرتنا على الإجابة الموضوعية عليها والعمل على حل إشكالياتها بمقدار ما ستكون قدرتنا فلسفيًا (نظريًا وعمليًا) على مواجهة تحديات المستقبل

وكشـف غوامضة. وفي ضوء ذلك ستتحدد قدرتنا كعرب على المشاركة الفعالة في بناء مستقبل الحضارة الإنسانية ككل وفي بناء نهضتنا الحضارية المنشودة على وجه الخصوص.

أعرف أن أسـئلة المسـتقبل بالنسبة لنا أسـئلة شـائكة ومعقدة ويواجهها تحديات جسام لأسـباب كثـيرة منها الداخـلي ومنها الخارجي، لكـن لاينبغي أن نتوقف عـن طرحها والإلحاح عليهـا. إن هذه مسـئوليتنا الفكرية. وعلى النخـب العربية، وعلى القيـادات العربية أن تمتلك القدرة والشـجاعة على التفاعل مع هذه الأسـئلة ومحاولة بحثها والاطلاع بمسـئولياتهم تجاهها لأنها أسئلة الحاضر بكل تحدياته كما أنها أسئلة المستقبل العربي المهدد بمحو الهوية وربما بمحو وجودنا ذاته. إنني أستشـعر الخطر. لكنني في ذات الوقت متشبث بالأمل فهل ينتصر الأمل على الخطر؟!! أتمنى ذلك..